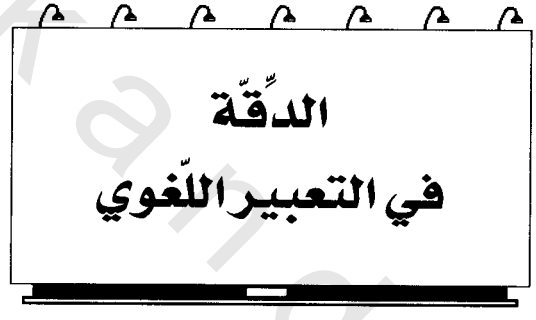

obeikandl.com

obeikandl.com

الدِّقة في التعبير اللغوي

القرآن الكريم هو المدرسة الأولى في (دقَّة التعبير اللغوي) فهو الذي حقَّق للغتنا العربية رَقيَّها وشموخَها وزادها قدرةً على التماسُكِ ونفث فيها طاقات التعبير اللغوي الراقي التي لا حدود لها، نعم لقد كانت اللغة العربية الفصحى على قدر كبير من النُّضج والقوَّة والتدفُّق عند العرب قبل الإسلام، واستحقَّ أهلُها أن يُوصفوا بالبلاغة والبيان، والبراعة في المناظرة والمنافرة ومقارعة الكلمة بالكلمة، وأن يوصفوا بأنهم (قوم خَصِمُون)، أي شديدو الخصومة، وهي صيغة مبالغة تدل على قدرة المخاصم على التصرُّفِ في فنون القول والتمرُّس في صياغة العباراتِ وتصريف الكلمات وصناعة الحجج التي تدعم رأيه.

نعم كانت اللغة العربية وأهلها على هذا المستوى من البيان في الجاهلية، ومع ذلك كلِّه فإنَّ القرآن هو المدرسة البيانية الأولى في «دقّة التعبير اللُّغوي» - كما ذكرنا - وذلك سرٌّ من أسرار إعجازه لأرباب الفصاحة والبيان، وسببٌ من أسباب اندهاشهم به، وإعجابهم ببيانه إعجاباً أصابهم بالذهول والاضطراب والاستسلام الذي ظهر عليهم جليّاً بالرغم من محاولتهم الجادة إخفاءَه عن الناس حتى لا يوصفوا بالعجز أو الانصياع لما جاء به محمد، ولا

بأس أن نقرأ معاً إحدى القصص التي رُويت لنا لتأكيد هذا الذي نقول:

يقول ابن هشام في سيرته: «ثم إنَّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسمَ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإنَّ وفود العرب ستقدمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأَجمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً، ويردَّ قولُكم بعضَه، قالوا: فأنتَ يا أبا عبد شمس فقُلْ وأقِمْ لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمَعْ.

قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّان فما هو بزَمْزَمَةِ الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنونَ وعرفناه، فما هو بخَنْقِه، ولا تخالجه، ولا وَسْوَسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعِر، لقد عرفنا الشعر كلَّه زجزَه وهزجَه وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطَه فما هو بالشعر، قالوا: فنول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسحرَهم، فما هو بنفثهم ولا عَقْدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإنَّ أصلَه لَعذَق، وإنَّ فَرْعَه لجَناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عُرف أنَّه باطل، وإنَّ أقرب القول

فيه لأَنْ تقولوا: ساحر، جاء بقولٍ هو سحرٌ يفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته»[1]

هذه القصة التي نقلها ابن هشام دليلٌ واضحٌ على ذلك الإدهاش الكبير الذي أحدثه القرآن الكريم في عقول فصحاء العرب...

إنَّ الحيرة الكبيرة التي وقع فيها القوم دليلٌ على أنهم وقفوا أمام نصٍ إعجازي كبير، جعلهم يضطربون في تحديد الوصف الذي يوافق أهواءَهم ويحقِّق لهم ما تريده تلك الأهواء من صَرْف أهل الموسم عن هذا القرآن الكريم، نعم إنهم في حالة من الحيرة والاضطراب لا يحسدون عليها.

ولسنا هنا بصدد الاسترسال في إبراز ملامح تلك الحيرة فإن شرح ذلك يطول.

المهم أن القرآن الكريم هو مدرسة الدقة في التعبير اللغوي الأولى والباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولا شك أنَّ كلَّ صاحب قلبٍ ذكي وذهنٍ حاضر وموهبة قوية، ولسان فصيح يؤمن بهذا القرآن الكريم ويتتلمذ على مدرسته

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص: ٢٧٠، الناشر: مؤسسة علوم القرآن.

اللغوية المعجزة سيكون على مستوىً رفيع من القدرة البيانية، والفصاحة، ودقة التعبير اللغوي، وهذا ما تحقَّق بكل مقاييسه الإبداعية لصاحبة الحرير الأخضر عائشة رضي الله عنها.

إنها تضع العبارة المناسبة في المكان المناسب فتؤدي الغرض المطلوب مباشرةً، وتحقِّق ما يستدعيه الفنُّ البلاغي من مراعاة مقتضى الحال التي تُعد من أهم أسباب وصول الكلمة إلى بُؤرة التأثير في نفس قارئها أو المستمع إليها.

إنه الفنُّ اللغوي العربي الفصيح الذي يُحرم من مذاقه المتميِّز وجماله ولذَّته كثيرٌ من العرب في زماننا هذا.

بين الرضا والغضب

عن عائشة - رضي الله عنها-، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعرف غضبَك ورضاك إذا كنت راضية، قالت: وكيف ذلك يا رسول الله، قال: «إذا كنتِ راضيةً قلتِ: بلى وربِّ محمد، وإذا كنتِ ساخطةً قلتِ: لا وربِّ إبراهيم، قالت: أجل ما أهاجر إلا اسمك»[1].

هنا تبرز اللغة الراقية، ويتجلَّى التعبير اللغوي الدقيق، والاختيار المحدَّد للعبارة الملائمة لحالة المتكلِّم، والموصِّلة للرسالة النفسية إلى المستمع.

هذا الحديث الذي ترويه لنا صاحبة الحرير الأخضر يؤكد لنا أهمية الدقة في اختيار العبارة لبناء أسلوب لغوي متين.

ورسول الله ﷺ يوضِّح لأحبِّ زوجاته إليه أنه يفهم الرسالة غير المباشرة التي تبعث بها إليه في حياتهم الأسرية الكريمة.

«بلى وربِّ محمد».. هنا جملةٌ تعبِّر عن الرِّضا الذي يملأ نفس أم المؤمنين، ولا شك أنها تستجمع السعادة من أطرافها وهي تذكر

(١) مسند عائشة لأبي بكر السجستاني، تحقيق عبدالغفور عبدالحق حسين، مكتبة دار الأقصى - الكويت ١٤٠٥هـ ص: ٧٠.

اسم الزوج الحبيب، ويالها من سعادةٍ لا حدود لَها بنطق اسم الحبيب الذي لا نظير له في البشر؛ لأنه المصطفى المختار أفضل الناس أجمعين.

هنا تعبيرٌ انتقائي عن حالة الرِّضا، فماذا يحدث في حالة السخط.

«لا وربِّ إبراهيم».. هنا يفهم الزَّوج الحبيب عليه الصلاة والسلام أنَّ زوجته الحبيبة ساخطة؛ لأن العبارة أخذت شكلاً آخر، فهناك (بلى) وهنا (لا)، وهناك (محمد عليه الصلاة والسلام) وهنا (إبراهيم عليه السلام)، القسم بالله سبحانه وتعالى واحد، ولكنَّ اختلاف الاسم هو الذي يحدِّد حالة قلب عائشة بين الرِّضا والسخط.

والحديث يعطينا دليلاً آخر على دقة التعبير اللغوي عند عائشة رضي الله عنها، فهي بعد أن استمعت إلى ما قال رسول الله ﷺ لها، قالت له مباشرة: أجل ما أهاجرُ إلا اسمك.

ما أروعها من عبارة وما أدقَّه من تعبير جرى على لسان أم المؤمنين رضي الله عنها.

«أجل» تصديقٌ لما قاله الرسول ﷺ وتأكيد لما فهمه من اختلاف العبارة بين الرِّضا والسخط.

و«ما أهاجر إلا اسمك» تأكيد للحب العظيم الذي تحمله في قلبها لرسول الله ﷺ؛ فهي لا تذكر اسمه في حالة سخطها حينما تقسم على شيء، ولكنّ حبَّه ومكانته في نفسها راسخة لا تتغيَّر أبداً، فهي في هذه الحالة لا تهاجر إلا الاسم، وهي بهذه العبارة الدقيقة تؤكد لرسول الله ﷺ حبَّها الكبير له.

ما أروعها من حياة زوجية كريمة.

obeikandl.com

صواحب عائشة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أَلْعَبُ في بيت رسول الله ﷺ بالبنات فيجئن صواحبي فينقمعْن من رسول الله ﷺ فيخرج فيدخلن عليَّ»[1].

هذا حديث يضيف إلى شواهدنا شاهداً واضحاً على دقَّة التعبير عند عائشة رضي الله عنها، فهي تروي لنا قصتها مع صواحبها من البنات الصغيرات اللاتي كنَّ في مثل عمرها، حيث كنَّ يأتين إليها وهي في بيت النبوة يلعَبْنَ معها. بالبنات المصنوعات من الأقمشة، أي (العرائس) التي يحلو للفتيات الصغيرات اللعب بها ثم تصور لنا بعبارةٍ واحدة صورة ذلك المشهد اللطيف، الذي نتخيل فيه صواحبها وهنَّ يركضن مختفيات عن الرسول ﷺ عندما يجيء وهنَّ عند عائشة.

إنها عبارة «يَنْقَمِعْنَ» بإيحاءاتها البلاغية واللغوية التي جعلتها العبارة المرشَّحة (بيانياً) للاستخدام في هذا المقام.

تقول معاجم اللغة: القَمْع: الدخول فراراً وهَرَباً، وقَمعَ في بيته وانقمع: دخله مستخفياً.

---

(١) مسند عائشة ص: ٥٢.

وعلى هذه المعاني يكون معنى «فينقمعن» الواردة في الحديث: يتغيَّبْن عن نظر الرسول ﷺ عندما يجيء، ويدخلن هارباتٍ في بيتٍ، أو من وراء ستر، حتى إذا ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام دخلن على عائشة لمواصلة اللعب معها بالبنات.

والقِمَع: هو الغطاء الذي على رأس الثمرة حيث تختفي فيه الثمرة.

إنَّ دِقَّةَ التعبير عند عائشة - خاصة في مثل عمرها - تلفت النظر، وتدلُّ على أثر البيئة والأسرة والتربية في نفس الإنسان، فالعبارات التي يمكن أن تستخدم للتعبير عن اختفاء صواحب عائشة كثيرة، ولكن صاحبة الحرير الأخضر - رضي الله عنها - تصوِّر بكلماتها ما تريد، ولا تكتفي من العبارة بمدلولها اللغوي المجرَّد؛ ولهذا كانت كلمة «ينقمعن» أقرب الكلمات إلى لسانها الفصيح.

ولا شك أنَّ هنالك ميزةً كبرى تضفي على أحاديث عائشة وكلماتها قيمة خاصة إلى جانب قيمتها البلاغية، ألا وهي الأحكام الشرعية التي تستفاد من أحاديثها في حياتها مع أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام.

ففي هذا الحديث تحدثنا عن (البنات المصنوعات من الأقمشة) للعب، فتضع بين أيدينا حكماً شرعياً بالإباحة لما كان من

هذا النوع من ألعاب الأطفال، وفي الحديث إشارة إلى الحياة الاجتماعية القائمة على التآلف والمحبة من خلال وجود صواحب عائشة عندها في بيت النبوة، وفي الحديث إشارة إلى الحياء الذي ينشأ مع الفتاة المسلمة منذ طفولتها حيث يدفعهن حياؤهن وهيبة رسول الله ﷺ في صدورهن إلى الانقماع عنه حتى يخرج.

وهكذا نشعر أن كلمات (صاحبة الحرير الأخضر) تشبه الحقول الخصبة ذات الأشجار المختلفة والأزهار المتنوعة.

obeikandl.com

الكَلْمُ المتحجِّر

قالت عائشة - رضي الله عنها -: تحجَّر كَلْمُ سعدِ بن معاذ الأنصاري بالنَّزفَ، فدعا سعدٌ فقال: اللهم تعلم أنه ليس أَحدٌ أحبَّ إليَّ من أنْ أجاهده، من قومٍ كذَّبوا رسولك وآذوه وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنْ قد وضَعْتَ الحربَ فيما بيننا وبينهم، فإنْ كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها أجاهدهم فيك، وإنْ كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم، فافجرُه بها، واجعل منيّتي فيها.

قالت: فانفجر من ليله فمازال يسيل حتى مات، فذلك حين يقول الشاعر:

ألا يا سعدُ سَعْدَ بني معاذِ
فما فعلتْ قريظة والنَّضير
لعمرك إنَّ سعدَ بني معاذِ
غداةَ تحمَّلوا لهو الصَّبور

إلى آخر الأبيات.[1]

هذا خبرمن أخبار كثيرة نقلتها إلينا عائشة رضي الله عنها بأفصح عبارة، وأَنْصع بيان، وأجود روايةٍ وحفظ.

وما دمنا في باب (دقة التعبير) فإن الذي يعنينا من عبارات هذا الخبر هو جملة: «تحجرَّ كَلْمُ سعد بن معاذ الأنصاري بالنَّزْف».

فالتعبير عن جمود الجرح بجمود الدَّم النازف عليه بالفعل (تحجَّر) دقيق في تصوير الحالة، فجرح سعدٍ رضي الله عنه الذي أصيب به في غزوة الخندق كان جرحاً بليغاً، وقد صورت لنا عائشة درع سعدٍ في خبرٍ آخر تصويراً يدل على أنها كانت دِرْعاً غير سابغةٍ عليه، فهي تخبرنا أنها كانت مع نساء المسلمين في الحصن يوم الأحزاب، وكنَّ يُشرفن على الطريق، وكانت مع أم سعد بن معاذ، فبينا هما تتحدَّثان إذْ رأتا سعداً يسير نحو الخندق بعد أن سبقه القوم، وعليه درع غير سابغة قد ظهرت منها جوانب من جسده، فقالت عائشة لأمه: إن درع ابنك سعداً غير سابغة، ولم تلتفت الأم إلى ما قالت عائشة، بل صاحت بابنها الذي كان يسير وهو يرِّدد:

لبِّثْ قليلاً يشهد الهيجا جمل

لا بأس بالموت إذا حان الأجلْ

قائلة له: لقد تأخرت يا سعد عن القوم كثيراً.

وحدث ما كان يُخشى، حيث انطلق سَهْمٌ أصاب (أَكْحَلَ) سعدٍ فجرحه جرحاً عميقاً.

وها نحن الآن نرى كيف تصوِّر لنا عائشة رضي الله عنها ذلك

الجرح الذي توقَّف نزفه، وتستخدم عبارة «تحجَّر» لأنها أدقُّ العبارات التي تصف تلك الحالة.

فالجرح قد اجتمع والتأم وقرب بعضه من بعض، وجمد واشتدَّ، وكلمة (تحجَّر) تدل على هذه المعاني جميعها، فمن معانيها في لغة العرب جَمْعُ الأشياء إلى بعضها، ومن معانيها، حَجْزُ الأشياء ومنعُها من التجاوز، ومن ذلك «الحَجْر على المال» أي منع صرفه لسبب قضائي، ومن معانيها الشدَّة والصلابة.

وهذه المعاني كلُّها مقصودة في الخبر الذي روته عائشة عن سعد بن معاذٍ رضي الله عنهما، وهو خبر مهم سنتناول تفاصيله فيما بعد.

الدخول في السِّن

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يصلِّي صلاة الليل قائماً، فلمَّا دخل في السِّنّ، جعل يجلس حتى إذا بقي من السورة ثلاثون أو أربعون قام فقرأها ثم سجد.[1]

إنَّ مواطن الإبداع في اللُّغة، والدِّقة في العبارة، لا تستوقف إلا من يعرف قيمة الاستخدام الأمثل والأرقى للغة العربية العظيمة.

وهذه المعرفة بقيمة اللغة هي التي تيسِّر استخدام اللغة عند المتحدثين بها، وتجعلهم عاشقين لها عِشْقاً قد يفوق كلَّ عِشْقٍ سواه في حياة الإنسان.

وهذه المعرفة - أيضاً - هي التي يتفاضل بها المتحدثون والكتَّاب، ويسبق بعضهم بعضاً في ميادين الفصاحة والبيان.

ومما يميِّز هذا الاستخدام الأمثل للغة أنه يأتي عَفْوَ الخاطر لا تكلُّف فيه، ولا مجال فيه للصَّنعة التي يظهر أثرها واضحاً في أساليب أصحابها.

«فلمَّا دخل في السِّنِّ».

---

(١) مسند عائشة: ٨٩.

هنا دخولٌ في شيء معنوي، ألا وهو «تقدُّم العمر وكبر السِّنّ»، والعبارة التي تتبادر إلى الذهن في الحالات المعتادة هي عبارة «كبر سنه» وما شابهها، لكن صاحبة الحرير الأخضر تستخدم اللغة بدقَّة تلفت النظر، وبنصاعة بيانٍ تدلُّ على أنها قد «دخلت في عالم اللغة العربية الجميل» دخولاً عميقاً، ومن هنا جاء تعبيرها مصبوغاً بصبغة البلاغة والتصوير الفني البديع.

«فلمَّا دخل في السِّنّ»، وأصبح - عليه الصلام والسلام - في مرحلةٍ من العمر تختلف عن مرحلة الشباب وقوته، والكهولة وقدرتها جعل يجلس في صلاته في الليل ويقوم قبل الركوع ليكمل صلاته.

لنا أن نقف عند جملة «دخل في السِّنّ» مستمتعين بما فيها من إيحاءات بلاغية جميلة، ومن دقة في التعبير عن حالة الإنسان حينما يخرج من قوَّة جسده إلى ضعفه.

ولهذه العبارة إيحاءٌ آخر، لا نعلم إنْ كانت صاحبة الحرير الأخضر قد قصدته أم لا.

ألا وهو رفع مقام النبي ﷺ عن الحديث عنه بالضعف الذي تستدعيه عبارات الشيخوخة، وكبر السن، وتقدُّم العمر، واستخدام عبارة تحقِّق المعنى المراد بصورة صافية سليمة من غبش الإيحاءات التي لا تستحبُّ في مثل هذا المقام.

الاستثناء الجميل

قالت عائشة - رضي الله عنها -: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط - إلا أن يجاهد في سبيل الله -، ولا ضرب خادماً ولا امرأة.(١).

هنا خبر عن رحمة الرسول ﷺ بالناس، وعطفه عليهم، وحسن خُلُقه معهم، خبرٌ عن ذلك التعامل النبوي الكريم مع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وعلى مراتب قربهم وبعدهم عند رسول الله ﷺ.

وتأتي دقة التعبير في هذا الخبر في الاستثناء والجملة المعترضة، حيث نفت عائشة رضي الله عنها نفياً واضحاً الضرب للناس أو للدواب عن أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، ولكنها استثنت منذ بداية حديثها ما يستحق الاستثناء بقولها - إلا أن يجاهد في سبيل الله - لأن هذا الاستثناء يحقق مبدأ الصدق الذي تنطلق منه عائشة ورواة الحديث من الصحابة رضي الله عنهم، ويزيل شبهة التعميم على كل شيء في هذه المسألة، فقد ثبت أن الرسول شارك في الغزوات مجاهداً مع أصحابه في سبيل الله.

---

(١) مسند عائشة ص: ٨٨.

ومثل هذا الاستثناء في هذا المقام لا يجري إلا على لسان من يقدِّر للكلمة قدرها، ويعرف أبعاد الأحاديث وآثارها، ويحرص على أن تكتمل في أحاديثه جوانب البيان الناصع، والكلام الصادق الذي لا يصطدم مع الحقيقة والواقع.

«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً» تعميم صحيح يناسبه لفظ «شيئاً» الذي يشمل كل ذي روح من إنسانٍ أو حيوان، كما يشمل جميع المستويات والمراتب دون تفريق بينها.

ثم يأتي بعد ذلك التخصيص - بعد التعميم - للأهمية القصوى في هذا المجال حيث تقول:

«ولا ضرب خادماً ولا امرأة».

أتدرون لماذا كان هذا التخصيص؟

لأن الناس قد اعتادوا على ضرب الخادم إذا أخطأ أو المرأة إذا خالفتْ؛ اعتادوا على ذلك؛ لأنهم يرون أن من حقهم أن يفعلوه مع من يقع تحت ولايتهم ورعايتهم، وفي تخصيص هذا الأمر هنا ما يؤكد أهمية الاهتمام بالخادم والمرأة اقتداءً برسول الله ﷺ.

أرأيتم كيف تدقُّ العبارة عند أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، وكيف يشرق الأسلوب في أحاديثها، وتبرز الفكرة في أخبارها بطريقة تستحق التقدير والإعجاب؟

إنها وقفات قصيرات أردت أن نقف - من خلالها - على الدقة في التعبير عند أم المؤمنين (صاحبة الحرير الأخضر)، عائشة رضي الله تعالى عنها، وإلا فإن الشواهد والأمثلة على ذلك موجودة في كل نصٍّ روي لنا عن تلميذة البيان المشرق في مدرسة النبوة التي أدارها ويتولَّى التعليم فيها محمد بن عبدالله ﷺ.

obeikandl.com